سلسلة المحاضرات العلمية (١)

حال المسلم بعد الحج

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

محفوظة
كل الحقوق

لا يسمح بطبع التّفريغ للأغراض التّجاريّة
أو ترجمته أو اختصاره دون موافقة خطّيّة

النّسخة الأولى
١٤٤٥

للإعلام بخطأٍ طباعيٍّ أو الاستدراك أو إبداء رأيٍ؛
يُرجى المراسلة على البريد الآتي : Abdellahdj٢٤@gmail.com

سلسلة المحاضرات العلمية ١

حال المسلم بعد الحج

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور

صالح بن عبد الله بن حميد العصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي أنعم علينا بشـهود حجِّ هذا العام، وجعلنا فيه من وفد بيت الله الحرام، نحمده سُبْحَانَهُ على ما أفاض به من الإنعام، ونشـكره جَلَّ وَعَلَا على منح من الإكرام، وأشهد ألَّا إله إلَّا الله وحده لا شريك له هو الحيُّ القيُّوم الَّذي لا ينام، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صفوة الأنام.

اللَّهم صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ، كما صلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، اللَّهمَّ بارك على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ، كما باركتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ حميدٌ مَجيدٌ.

أمَّا بَعْدُ:

أيُّها المُؤْمِنُونَ! إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمَّا خلق الإنسـان جعل له آلاتٍ، ووهب كلَّ آلةٍ قوَّةً، وإنَّ من جملة الآلات الَّتي منحنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: آلة العقل، فبها ميَّزنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن البهائم العجماء، فأنت قد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لك عقلًا، وترى من حولك خلقًا كثيرًا لا عقل لهم يدورون في ملكوت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه الآلة – العقل – الَّتي وهب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا جعل لها موضعًا، وهو القلب، مع اتِّصاله بالدماغ.

وصيَّر الله سُبْحَانَهُ مدار الصَّلاح والفساد على هذه الآلة وقوَّتها، فبها يَصلُح الإنسان، وبها يَفسُد الإنسان.

ففي «الصَّـحيحين» من حديث زكريَّا بن أبي زائدةَ، عن عامرٍ الشَّـعبيِّ، عن النُّعمان ابن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ**

صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ» [1].

وهذا الصَّلاح والفساد في القلب، يجعل الإنسان يولي هذه الآلة وقوَّتها العنايةَ العظيمة.

ولحرص الشَّريعة على العناية بهذه الآلة؛ قُلِّب في القرآن أنواعٌ من الآي الَّتي تأمرنا بإثارة الفِكر، وإجالة النَّظر، وإعمال القلب والعقل، تارةً بقوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ [الغاشية:١٧]، وتارةً بقوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢، الزُّخرُف:٥١، الذَّاريات:٢١]، وتارةً بقوله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٥٠]، والمراد من هذه السُّؤالات: إثارة نفوسنا لإعمال قلوبنا وعقولنا في طلب ما يصلحنا.

ومن جملة ما ينبغي من مواضع الأحوال الَّتي يجيل فيها المرء فِكره، ويُعمِل قلبه، ويحرِّك عقله: الأحوال الَّتي نُقلِّب فيها من حالٍ إلى حالٍ:

- فذاك الَّذي كان أعزبًا ثمَّ صار ناكحًا متزوِّجًا، ينبغي أن يفكِّر في هذين الحالين.
- وذلك الَّذي كان غنيًّا ثمَّ افتقر، أو كان فقيرًا ثمَّ اغتنى، ينبغي أن يتأمَّل في هذه الأحوال.
- وذاك الَّذي كان صحيحًا ثمَّ مرض، أو كان مريضًا ثمَّ صحَّ، ينبغي أن يفكِّر في الحال الأولى وفي الحال الثانية.

لماذا اغتنى ولماذا افتقر؟ أو لماذا افتقر ولماذا اغتنى؟ لماذا كان أعزبًا ثمَّ صار ناكحًا؟ وما الفرق بين الحالين؟ وما الأمور الَّتي ينبغي أن يرعاها في كلِّ حالٍ منهما؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢) ومسلمٌ (١٥٩٩)، من حديث النُّعمان بن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق]، فأقسم الله عَزَّوَجَلَّ بهؤلاء كلِّهنَّ للإعلام بأنَّنا نُنقَّل من حالٍ إلى حالٍ، فقوله تَعَالَىٰ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق] أي لَتُحوَّلُنَّ من حالٍ إلى حالٍ.

وأنتم أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! كنتم قبل أيَّام غير حجَّاجٍ لبيت الله الحرام، واليوم صرتُم ممَّن حجَّ بيت الله، وربَّما فيكم من هذه أوَّل حجَّةٍ له.

فتلك الحال الَّتي كنَّا فيها، والحال الَّتي صرنا إليها، تستدعي منَّا أن ننظر في هذا الأمر، وأيُّ شيءٍ ينبغي أن يُحدِث في نفوسنا، وأن يحرِّك في قلوبنا، وأن يُجيل في عقولنا؛ **لأنَّ هذه الإجالة في العقل يرجع على المرء بمنفعتين عظيمتين:**

- **إحداهما**: الإحسان مع الخالق.
- **والأخرى**: الإحسان مع المخلوقين.

فعندما تستدعي قلبَك، وتحرِّك عقلك، وتثير فِكرك في الحال الَّتي مررتَ بها هذه الأيَّام غير حاجٍّ وحاجًّا، فالمراد من ذلك أن تبلغ مرتبة الإحسان الَّتي قال الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة]، وهذا الإحسان يكون تارةً مع الخالق، ويكون تارةً أخرى مع المخلوق.

فالإحسان مع الخالق هو الَّذي ذكره النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قصَّة جبريلَ المرويَّة في «الصَّحيحين» من حديث أبي هريرةَ [١] وفي مسلمٍ من حديث عمرَ [٢]، وفيه أنَّ النَّبيَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٠) ومسلمٌ (٩).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٨).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا ذكر الإحسان مع الله قال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وأمَّا الإحسان مع المخلوق فهو الَّذي ذكره النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عبد الله ابن عمرٍو في «صحيح مسلمٍ»، وفيه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»[1]، فالإحسان مع المخلوقين: أن تعامل النَّاس كما تحبُّ أن يعاملوك.

وهذه الإجالة للفِكر والنَّظر والعقل في حالنا قبل الحجِّ وبعده، المراد منها: أن نكون من المحسنين؛ من المحسنين مع الله، ومن المحسنين مع خلق الله.

فلا ينبغي أن تمضي علينا هذه الحال دون إثارة قلوبنا، وتحريك عقولنا، وإجالة الفِكر فيما مررنا فيه من أيَّامٍ، وأقوالٍ، وأعمالٍ، وأحوالٍ، وأماكنَ، تنقَّلنا من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، ومن قولٍ إلى قولٍ، ومن لباسٍ إلى لباسٍ = كلُّ ذلك يستدعي أن ننظر إلى أنفسنا بعين الفكر، كيف يكون حالنا مع الحجِّ؟ وكيف يكون حالنا بعد الحجِّ؟ حتَّى نحصِّل المنافع العظيمة من حجِّنا.

فإنَّ هذا النَّظر الَّذي ذكرناه له متعلَّقان:

- **أحدهما**: النَّظر في المنافع الَّتي حصَّلناها في الحجِّ.
- **والآخر**: النَّظر في الأمور الَّتي ينبغي أن نكون عليها بعد الحجِّ.

فأمَّا المنافع الَّتي حصَّلناها في الحجِّ: فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال - ولا أصدق من الله قيلًا - لأبينا إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحجّ:٢٧-٢٨].

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٨٤٤).

فأخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ شهودنا الحجَّ له منافعُ، ووقع هذا الإخبار منكَّرًا بقوله: ﴿مَنَٰفِعَ﴾، والتَّنكير للتَّكثير، ثمَّ إنَّه جيء به على صيغة منتهى الجموع (مَفاعل) تكثيرًا بعد تكثيرٍ.

ولو أنَّ أحدنا دخل في معاملةٍ ماليَّةٍ، أو وقف على كنزٍ ماليٍّ، لَاستبصر بما سيحوز من هذا المال، فأنت - أيُّها الحاجُّ - وقد أشهدك الله الحجَّ، ما المنافع الَّتي سترجع بها؟ تلك المنافع الَّتي كثَّرها الله وعظَّمها فقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

لن أحدِّثك عن منافع الدُّنيا - وهي كثيرةٌ -، ولكنَّ الأعظم أن أحدِّثك عن المنافع الَّتي ترجع عليك في دينك لمَّا أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك وصرتَ من جملة الحجَّاج.

❁ **فالمنفعة الأولى**: تحقيق العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فإنَّ الله لمَّا ذكر فرض الحجَّ قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:٩٧]، وقال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]، فالآيتان اشتملتا على تعليق عمل الحجِّ والعمرة بعبوديَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فأنت عندما قدمتَ إلى هذه المشاعر العظيمة، حقَّقتَ عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تحقيقًا يتجلَّى فيه الحبُّ والخضوع لله: تتوجَّه فيه القلوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تحبُّه، وترجوه، وتخافه، وتنيب إليه، وتُسلِم له، وتتوكَّل عليه، وتستعين به، وتستغيث به، تسأل حاجاتها، وتستغيث في لهفاتها، تستمطر رحمات الله، وتستجلب عطاءاته، تشتكي جروحها، وتذكر فقرها، وتريد من ربِّها رحمةً في الأولى والآخرة.

إنَّ تحقيق العبادة لله عَزَّوَجَلَّ هو الغاية الَّتي خُلِقنا من أجلها؛ كما قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذَّاريات]،

وأنت - أيُّها الحاجُّ - شرَّفك الله اليوم بأن صرتَ ممَّن يحقِّق العبادة لله.

إذا كان النَّاس يَشرفون عند النَّاس بنيل المناصب والرِّئاسات، وجمع الأموال ونيل المقامات؛ فأنت قد شَرُفت عند الله بأن صرت عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ بتحقيق هذا الحجِّ، وكم من إنسانٍ يتحسَّر على بلوغ هذا المقام وقد بلغتَه!

فمن أعظم المنافع الَّتي أحرزناها: تجلِّي عبادتنا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، امتثالًا، وتصديقًا، وإشرابًا للقلوب بحبِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والخضوع له.

❁ **والمنفعة الثَّانية**: الاستسلام لله.

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بالاستسلام له فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزُّمر:٥٤]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النِّساء:١٢٥]، وقال: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة]، وقال: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان:٢٢].

وحقيقة أفعال الحجِّ وأقواله: أنَّها استسلامٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

تجلَّى هذا الاستسلام بخروجنا من أهلينا وذرارينا وأموالنا، وقصدِنا إلى مكَّةَ البلدِ الحرام.

تجلَّى هذا الاستسلام بأنَّ أحدنا ينتقل من موضعٍ إلى موضعٍ، ومكانٍ إلى مكانٍ، ويلاحظ زمانًا فزمانًا آخر، ويفعل أفعالًا، ويقول أقوالًا = كلُّ ذلك استسلامًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

بياتنا في منًى استسلامٌ لله، رمي الجمرات استسلامٌ لله، ذبح الهدي استسلامٌ لله،

طواف الإفاضة استسلامٌ لله، سعي الحجِّ استسلامٌ لله، طواف الوداع استسلامٌ لله.

وقد ينازعك المنافقون - وإن تَسربلوا بسربال الإسلام - في هذا، ويتَّخذونه سخريَّةً وهزءًا، فيرون أنَّ رمي الجمار لا معنى له، ومنًى بقعةٌ كغيرها من بقاع الأرض، وتعظيم البلد الحرام والكعبة بالطَّواف شيءٌ كان من الجاهليَّة! ولكنَّ الفرق بيننا وبينهم: أنَّنا مستسلمون لله، وهم معاندون محجوبون عن الاستسلام لله، شاءوا أم أبوا.

وهذا الاستسلام يزيدنا شرفًا وفخرًا وعزًّا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكم من استسلامٍ هو ذلٌّ، ولكنَّ الاستسلام لله عزٌّ وفخرٌ.

فعندما يأتي الحاجُّ ويفعل أفعال الحجِّ، ويذكر أقواله، ويتتبَّع مقاماته، ويهتدي بهدي النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّه مستسلمٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإذا استسلمتَ للعظيم الكريم؛ فأبشر بالعظمة والكرم.

قيل للحسن البصريِّ: ما بال المتهجدِّين - يعني أهل صلاة اللَّيل - من أحسن النَّاس وجوهًا؟ فقال: «لأنَّهم خلوا بالرَّحمن، فألبسهم نورًا من نوره»[1].

فكذلك المستسلمون لله بالحجِّ، الَّذين تركوا أولادهم وأهليهم وأموالهم، وحملوا أنفسهم على الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن زمانٍ إلى زمانٍ، ومن فعلٍ إلى فعلٍ، ومن قولٍ إلى قولٍ = هم يستسلمون له.

ومن استسلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليُبشِر.

○ ففي الدُّنيا لا أحسن دينًا منه؛ كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ

(١) أخرجه المروزيُّ في «مختصر قيام اللَّيل» ص٥٨، والآجرِّيُّ في «فضل قيام اللَّيل والتَّهجُّد» ص٩٢.

لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النِّساء:١٢٥].

○ وفي الآخرة فالأمر كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية المتقدِّمة: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[البقرة].

۞ **والمنفعة الثَّالثة**: تمحيص الاتِّباع للوحي والرِّسالة.

فبالحجِّ يتحقَّق اتِّباع الوحي الَّذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض، ابتداءً من أبينا إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وانتهاءً بنبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ففي «السُّنن الأربع» من حديث يزيدَ بن شيبانَ، عن يزيدَ بن مِرْبعٍ الأنصاريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه ينادي في النَّاس في هذه المشاعر: «**قِفُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ، فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ»[(١)].

وفي «صحيح مسلمٍ» من حديث ابن جريجٍ، عن أبي الزُّبير محمَّد بن مسلمٍ، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ**»[(٢)].

فعندما يأتي الحاجُّ ويفعل ما يفعل، ويقول ما يقول، وينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن زمانٍ إلى زمانٍ، فيا لشرف الاتِّباع أن يكون الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثمَّ بمحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهما الخليلان؛ فمن اقتدى بالخليلين فقد أعظم حظَّه من عبوديَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيتحقَّق في نفوسنا الاتِّباع لمحمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المقتدي بأبيه إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في الحجِّ، وننال حظًّا من تحقيق

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ (٣٠١٤)، وأبو داودَ (١٩١٩)، والتِّرمذيُّ (٨٨٣)، وابن ماجهْ (٣٠١١).

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٢٩٧).

شـرط محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ الَّذي ذكره في قوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فأنتم - أيُّها الحجَّاج المتَّبعون لمحمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - قد ازدلفتم إلى مقامٍ عظيمٍ، ومستمسَكٍ جليلٍ من الفوز بمحبَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ - نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا جميعًا ممَّن يحبُّه.

❁ **والمنفعة الرَّابعة من منافع الحجِّ**: تذكُّر الآخرة.

فإنَّ الله لمَّا جعلنا في هذه الحياة الدُّنيا ببَهرجها وزخرفها وزينتها، جعل من مقاصد الشَّريعة العظمى: التَّذكير بالآخرة؛ لئلَّا تصير حياة المسلمين مناطةً بهذه الدُّنيا، متقلِّبةً في قذَرها، متجشِّمةً كدرها.

فعُنِي الإسلام بتخليص القلوب من رقِّ الدُّنيا وإخراجها إلى عزِّ الآخرة؛ بتذكيرها مرَّةً بعد مرَّةٍ بتلك الآخرة.

فانظر إلى قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في «صحيح مسلمٍ»: «**زُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ**»(١)، فالمقصود من الزِّيارة: التَّذكير بالآخرة.

وانظر إلى قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في «الصَّحيحين» لمَّا ذكر أمر الخسوف فقال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ**»(٢).

(١) أخرجه مسلمٌ (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٠٤١) ومسلمٌ (٩١١) - واللَّفظ له -، من حديث أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ومسالك الشَّرع في التَّذكير بالآخرة متنوِّعةٌ، ومن جملتها: حجُّ بيت الله الحرام.

ففي الحجِّ يتذكَّر النَّاس الآخرةَ بازدلافهم إلى موضعٍ واحدٍ من الأرض، كما يجتمعون في الآخرة في يوم المحشر.

وكما يتجرَّدون من لباسهم في الدُّنيا ويلبسون لباسًا خاصًّا يستوي فيه الخلق كافَّةً؛ فكذلك يتذكَّرون الآخرة بأنَّهم إذا خرجوا من الدُّنيا أُلبِسوا لباسًا واحدًا هو الأكفان، فتذكِّر حال الحجِّ بما سيصير إليه النَّاس في الآخرة.

يتذكَّرون بالمشقَّة والحرِّ والشَّمس ما سيكون يوم القيامة من الحرِّ، واجتماع الخَلق، ودنوِّ الشمس، وعلوِّ العرق وإلجامه الخلقَ؛ فيكون الحجُّ مذكِّرًا بالآخرة، يحمل العبد على العمل لها.

وقد سُئل الحسنُ البصريُّ: ما الحجُّ المبرور؟ فقال: «أن ترجع زاهدًا في الدُّنيا، راغبًا في الآخرة»(١).

فيرجع الإنسان من حجِّه وقد تذكَّر في هذا الحجِّ الآخرةَ، وما يكون فيها، وأنَّ الحجَّ كما انقطعت أيَّامه، فحياتُك ستنقطع أيَّامها، وستُنقَل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في يومٍ عظيمٍ، قال الله فيه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[البقرة:٢٨١].

ومن دقائق التَّصرُّفات القرآنيَّة: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لمَّا ذكر كثيرًا من أحكام الحجِّ في سورةٍ باسمه - هي سورة الحجِّ -، ابتدأها بقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ

(١) أخرجه قَوَّام السُّنَّة في «التَّرغيب والتَّرهيب» (١٠٧٢).

شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحجّ].

فافتُتِحت سورة الحجِّ بهذه الآية؛ ليكون الحجُّ مذكِّرًا بذلك اليوم، فهي تذكِّر بأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كما جمع النَّاس من كلِّ أفقٍ في هذا المقام العظيم والموقف الجليل، فسيجمعهم كذلك من كلِّ أفقٍ في أرض المحشر، وسيحصل لهم شيءٌ ممَّا حصل من جنسه في الدُّنيا في الحجِّ من الحرِّ وشدَّة الشَّمس ونزول العرق وازدحام الخَلق.

فمن منافع الحجِّ: أنَّه يذكِّر بالآخرة.

ومنافع الحجِّ الَّتي تتعلَّق بدين الخلق كثيرةٌ، لكن نقتصر على هذه الجملة بما يناسب المقام.

وبعد إرسال النَّظر في منافع الحجِّ، يبقى إعماله في الأمور الَّتي ينبغي أن يلاحظها الحاجُّ بعد أن ينفصل من الحجِّ ويرجع إلى أهله، فأنت بعد حجِّك ليس كما أنت قبل حجِّك؛ **وذلك لأمرين عظيمين:**

* **أحدهما**: أنَّ الحجَّ نعمةٌ عظيمةٌ، وإذا نزلت بالإنسان نعمةٌ فإنَّه يجب عليه شكرُها؛ قال تَعَالَىٰ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]، وقال تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء] أي اعلموا أيُّها الذُّرِّيَّة الباقية في الأرض من أبيكم نوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أنَّ أباكم نوحًا نال هذا المقام بشكره لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكونوا له شاكرين.

فالحجُّ نعمةٌ، وللنِّعمة شكرٌ.

* **والآخر**: أنَّ العبد إذا حجَّ يكاد يستكمل أركان الإسلام، فهو قد شهد لله بالوحدانيَّة، ولرسوله محمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرِّسالة، وقد أقام الصَّلاة، وصام رمضانَ،

وآتى الزَّكاة غالبًا - لأنَّ الحجَّ من شرطه: الاستطاعة -، ولم يبق من أركان الإسلام إلَّا الحجُّ، وها هو اليوم قد صار حاجًّا وقد استكمل أركان الإسلام.

فذلك وهذا يستدعيان من العبد أن يفكِّر في الحال الَّتي ينبغي أن يكون عليها بعد رجوعه من الحجِّ، تفكيرًا لا يستجلبه أن يناديه النَّاس باسم (الحاجِّ فلانٍ)، أو أن يَعقِدوا له موائد الطَّعام، أو أن يجتمعوا عليه مهنِّئين، كلَّا، لكنَّه يستدعي النَّظر منه إلى أمورٍ عظيمةٍ ينبغي أن يكون عليها بعد حجِّه، حرَّكها في نفسه أنَّه اليوم قد صار حاجًّا، وقبل ذلك لم يكن من حجَّاج بيت الله الحرام.

❁ **فأوَّل تلك الأمور**: عدم الاغترار بالعمل الصَّالح.

قال الله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان]، **والغَرور**: كلُّ شيءٍ أُصيب به الإنسان بغِرَّةٍ - أي بغفلةٍ -، فكلُّ شيءٍ يُولِّد الغفلة في قلب الإنسان فقد حذَّرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه، ومن جملة ذلك: الأعمال الصَّالحة.

وفي «صحيح البخاريِّ» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمَّا ذكر حديثًا في فضل الوضوء وما يكفِّر من الذُّنوب - قال: «**لَا تَغْتَرُّوا**»[1]، وأصل الحديث في «الصَّحيحين»، إلَّا أنَّ اللَّفظة المذكورة عند البخاريِّ وحده.

فيا أيُّها الحجَّاج! لا تغترُّوا بأنَّكم عملتم هذه الأعمال، لا تغترُّوا بأنَّكم وقفتم في هذه المشاعر، لا تغترُّوا بأنَّكم تركتم أهلكم وجئتم تطلبون ما عند الله.

لا تغترُّوا، فالله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٤٣٣) من حديث عثمان بن عفَّانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

دخل سائلٌ إلى ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال لابنه: أعطه دينارًا، فأعطاه، فلمَّا انصرف قال ابنه عقيلٌ: تقبَّل الله منك يا أبتاه، فقال: «لو علمتُ أنَّ الله تقبَّل منِّي سجدةً واحدةً، أو صدقة درهمٍ، لم يكن غائبٌ أحبَّ إليَّ من الموت، تدري ممَّن يتقبَّل الله؟ إنَّما يتقبَّل الله من المتَّقين» [(١)].

وفي ترجمة عامر بن عبدٍ الكوفيِّ - وكان رجلًا عابدًا - أنَّه بكى في مرضه الَّذي مات فيه بكاءً شديدًا، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟ قال: «آيةٌ في كتاب الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة]» [(٢)].

فلا ينبغي للإنسان أن يغترَّ بما عمل من الأعمال، وما بذل من الأموال، فيرجع منتفخ الصَّدر، بارز الجبهة، مستعليًا على النَّاس بأنَّه صار حاجًّا وأنتم أيُّها النَّاس لم تكونوا بعدُ من الحاجِّين! بل عليه أن يكون قلبه راغبًا إلى الله، ملتمسًا منه أن يتقبَّل منه عمله، فالَّذي بلَّغك هذا المقام إنَّما هو الملك العلَّام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ونِعمُ الله علينا كثيرةٌ، فمهما عملنا لله من عملٍ فإنَّنا لا نأتي بما يجب لله من شكرٍ.

وفي «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقوم اللَّيل حتَّى تفطَّرت قدماه - يعني تشقَّقت -، فلَامته عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - شفقةً به -، وذكرت له مغفرة الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**» [(٣)].

وفي «الصَّحيحين» أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قالوا: ولا

---

(١) أخرجه ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» ٣/ ٣٤٧.

(٢) أخرجه ابن أبي الدُّنيا في «المحتضِرين» ص ١٤١، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٣٧) ومسلمٌ (٢٨٢٠).

أنت يا رسول الله؟! قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**» (١).

فلا ينبغي للإنسان أن يغترَّ بأعماله، لكن يحسن الظَّنَّ بالله، ويدعوه أن يتقبَّل منه عمله، ويرجع مخبِتًا خاشعًا لله، طامعًا في رحمته، راجيًا مغفرته، ينظر إلى ذنبه ويحتقر عمله، ولا يرى أحدًا من الخلق إلَّا رآه خيرًا منه وأنَّه دون منزلته؛ ليكسر سَورة الكِبر في نفسه، ولئلَّا يستعلي على الخلق بما أنعم الله عليه وأوصله إليه من فضله.

❁ **والأمر الثَّاني**: التَّوبة إلى الله.

فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النُّور]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التَّحريم:٨].

لم يخاطب الله النَّاس بذنوبهم ولا سيِّئاتهم، فلم يقل سُبْحَانَهُ: (يا أيُّها المذنبون)، ولا قال: (يا أيُّها المسيئون)، ولا قال: (يا أيُّها المخطئون)؛ بل خاطبهم بأعظم ألقاب الإسلام والإيمان بالله، وهو اسم (المؤمن)، فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النُّور:٣١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التَّحريم:٨]؛ للإعلام بشدَّة الحاجة إلى التَّوبة.

وفي «صحيح مسلمٍ» أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال في حديث أبي عبد الله الأَغرِّ المُزنيِّ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**» (٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧) ومسلمٌ (٢٨١٦) من حديث أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٧٠٢).

إذا كان أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير من وطئ الحصى، الَّذي غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، يقول بجهرٍ: إنَّه يتوب إلى الله، ويأمر النَّاس بالتَّوبة، ثمَّ ينادينا الله باسم الإيمان أن نتوب إليه = فمن الجدير بنا أن يكون حالنا بعد الحجِّ التَّوبة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن نزداد من الخير، وأن نجتهد في تقليل ذنوبنا؛ فإنَّه لا يُتصوَّر وجود أحدٍ من النَّاس خليًّا من الذُّنوب.

ففي «صحيح مسلمٍ» من حديث أبي إدريسَ الخولانيِّ، عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ أنَّه قال: «**يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»[(١)].

كما استطاع النَّاس أن يرصدوا حجم الميكروبات والجراثيم المنتشرة في الفضاء، فانظر لو أنَّ الإنسان أمكنه أن ينظر إلى معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث الإلهيِّ: «**يَا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**»، فذنوب الخلق غير منقطعةٍ، كذلك خُلِقوا، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الحديث: «**فَاسْتَغْفِرُوْنِي أَغْفِرْ لَكُمْ**».

وفي «صحيح مسلمٍ» أيضًا أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[(٢)].

فينبغي أن يغتنم الإنسان شهود الحجِّ ليكون من عباد الله التَّائبين.

ومن تلطُّف الله - الَّذي يتجلَّى فيه اسم (اللَّطيف) -: أنَّه لمَّا ذكر ذنوب العباد،

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وحثَّهم على طلب التَّوبة منها، قال: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُّمر:٥٣]، فنسبهم إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾؛ ليحرِّك نفوسهم إلى التَّوبة.

فينبغي أن نجتهد - من مجالسنا في هذه المشاعر وما بعد ذلك - في تحقيق توبتنا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توبةً تبقى معنا حتَّى نلقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - جعلنا الله وإيَّاكم من عباده التَّائبين.

۞ **والأمر الثَّالث**: الاستقامة على دين الله.

فإنَّ الله قال لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢] فأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يستقيم، ثمَّ أمر من تاب معه، وأنتم من الَّذين معه؛ لِما في «صحيح مسلمٍ» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟! قال: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**» الحديث [(١)].

فقوله تَعَالَىٰ في الآية: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود:١١٢] يندرج فيه كلُّ متَّبعٍ للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يوم القيامة؛ فهو مأمورٌ بالاستقامة.

وفي «صحيح مسلمٍ» من حديث سفيانَ بن عبد الله الثَّقفيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه قال للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «**قُلْ: آمَنْتُ بِالله فَاسْتَقِم**»، وفي بعض نسخ مسلمٍ: «**ثُمَّ اسْتَقِمْ**» [(٢)]، فأُمِر بالإيمان، وأن

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٤٩) من حديث أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٣٨).

يلزم الاستقامة.

فينبغي علينا أن نلزم الاستقامة، **وحقيقتها**: إقامة العبد نفسَه على الدِّين؛ لأنَّ الصِّراط المستقيم الَّذي بُعِث به النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الإسلام.

فـ(**المستقيم**) هو الَّذي يقيم نفسه على الدِّين الَّذي جاء به النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا كان لأحدنا تفريطٌ فيما مضى من عمره قبل الحجِّ في عدم الاستقامة كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فينبغي له أن يغتنم فرصة الحجِّ بأن يرجع مع عقد النِّيَّة في قلبه أن يكون مستقيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما أمر.

۞ **والأمر الرَّابع**: تعلُّم دين الله والتَّفقُّه فيه.

فهذه الشَّعائر الَّتي قمتم بها، لم تكونوا لتأتوا إليها ولا أن تؤدُّوها قولًا وفعلًا إلَّا مع العلم بها؛ فعلمتُم أنَّ الله افترض عليكم الحجَّ فأتيتم حاجِّين، وعلمتم أنَّ الحجَّ يكون لله في البيت الحرام بمكَّةَ فأتيتم إليها دون سائر البقاع، وعلمتم أنَّ نبيَّكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاف وسعى ورمى وحلق فاتَّبعتموه فيما فعل.

وهذا الَّذي صار إليكم من العلم بشيءٍ ممَّا جاء به النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحجِّ، يستدعي منكم أن تتفقَّهوا في الدِّين الَّذي جاء به محمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ الله قال آمِرًا نبيَّه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمر:٩]، وقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام:٨٣]؛ قال زيد بن أسلمَ في هذه الآية: «إنَّه العلم، يرفع الله به من يشاء في الدُّنيا» (١)، وقال تَعَالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتمٍ في «تفسيره» (٧٥٥٠).

﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١]، وقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا؛ يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**». متَّفقٌ عليه من حديث الزُّهريِّ، عن حُميد بن عبد الرَّحمن، عن معاويةَ بن أبي سفيانَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا(١).

فالعبد مأمورٌ بأن يتفقَّه في دين الله عَزَّوَجَلَّ.

وإذا علمتَ أنَّ الله أكرمك بالإسلام، ثمَّ أكرمك بمحمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فينبغي أن تتعلَّم الدِّين الَّذي جاء به النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وينبغي أن يجتهد أحدنا بعد رجوعه إلى بلاده في طلب العلم؛ لأنَّه به يعرف ما جاء به الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، والتَّوحيد والشِّرك، والسُّنَّة والبدعة، والضَّلالة والهدى، والخطأ والصَّواب.

فلا سبيل إلى الوصول إلى ما أُرِيد منَّا شرعًا إلَّا بأن نتعلَّم الدِّين الَّذي بُعِث به محمَّدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وفي «الصَّحيح» أنَّ أمَّ أيمنَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا بكت عند وفاة النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقيل لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالت: ما أبكي ألَّا أكون أعلم أنَّ ما عند الله خيرٌ لرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولكن أبكي أنَّ الوحي قد انقطع من السَّماء(٢).

والمراد بانقطاع الوحي: انقطاع نزوله من السَّماء، لا وجوده في الأرض، فالله عَزَّوَجَلَّ أبقى الوحي فينا محفوظًا بما أوحاه إلى النَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من القرآن والسُّنَّة، وقال:

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧١) ومسلمٌ (١٠٣٧).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٤٥٤) من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحِجر]، لكن؛ أيُّنا يشـرِّفه الله بأن يكون ممَّن يتعلَّم العلم فيحفظ دين الله في الأرض؟!

وفي «الصَّحيحين» - واللَّفظ لمسلمٍ - أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ**» يعني في آخر الزَّمان «**فَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ**»، قال ابن أبي ذئبٍ في تفسير «**وَأَمَّكُم مِنْكُم**»: فأمَّكم بكتاب ربِّكم تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وسنَّة نبيِّكم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1].

وهل يصل الكتاب والسُّنَّة إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بوحيٍ جديدٍ؟ لا؛ لأنَّ الوحي انقطع نزوله من السَّماء، لكن يصل إليه بوجوده في الأرض، ويبقى في الأرض بتعلُّم العلم وبثِّه ونشره وتعليمه.

وإذا كان أحدٌ من النَّاس يَشرُف بأن يكون حارسًا لملكٍ، أو حارسًا لأميرٍ، أو حارسًا لغنيٍّ، فيا للشَّرف أن تكون حارسًا لدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتحرس دين الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ العلم ونشره وبثِّه.

ولذلك قال بعض السَّلف: «أهل الحديث حرَّاس الدِّين» يعني العارفون بالسُّنَّة، العاملون بها، الدَّاعون إليها، هم حرَّاس الدِّين الَّذين يحفظونه في الأرض.

فينبغي أن تجتهدوا في تعلُّم دين الله وتعليمه ونشره وبثِّه؛ لتكونوا ممَّن يرمي بسهمٍ في حراسة دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأرض، فتنالوا الفضائل العظيمة لطلب العلم في الدُّنيا والآخرة، الَّتي لا يقاربها شيءٌ من الأعمال إلَّا قليلًا.

ولذلك أجمع الأئمَّة الأربعة على أنَّه لا عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٤٩) ومسلمٌ (١٥٥)، من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهو العمل الأفضل؛ لِما فيه من حفظ دين النَّاس وتعليمهم، وإقامة ذكر الله، وجعل كلمة الله هي العليا، وبقاء دين محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المشرق والمغرب.

فإذا تحقَّق هذا في نفس العبد، وصار له حظٌّ منه؛ فهذه من جنَّة الدُّنيا الَّتي أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها عليه.

نسأل الله سُبْحَانَهُ أن يجعلنا جميعًا من العالمين بأمره، النَّاشرين لدينه، النَّاصرين لشرعه.

۞ **ومن جملة تلك الأمور**: توثيق صلة العبد بربِّه بدوام ذكره.

فينبغي أن نرجع بعد الحجِّ وقد استمسكنا بعروةٍ وثقى من ذكر الله؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾[البقرة:٢٠٠-٢٠١].

وكان أهل الجاهليَّة إذا فرغوا من الحجِّ اجتمعوا في النَّوادي والمجالس يذكرون مآثر آبائهم ومفاخرهم، فإنَّ ذكر الإنسان أباه يجول في نفسه، فبه يفتخر، وهو أصل وجوده؛ فأُمِرنا بعد الفراغ من المناسك أن نكثر من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كذكرنا آباءنا أو أعظم.

فينبغي للإنسان إذا فرغ من المناسك أن يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِما يحصِّله من المنافع العظيمة في الدُّنيا والآخرة؛ فالله قال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾[الأحزاب].

فينبغي أن يزداد حظُّ العبد من ذكر الله؛ لِما في ذلك من الخيرات، وأن يحرص الإنسان بعد رجوعه على تعلُّم الأذكار الَّتي كانت من هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيتعلَّم أذكار الصَّباح وأذكار المساء، والأذكار الَّتي تقال في أدبار الصَّلوات المكتوبات، والأذكار الَّتي تُقال عند النَّوم وعند الاستيقاظ، وعند إرادة الأكل والشُّرب، وعند الفراغ منهما، وعند العطاس، وعند لقاء النَّاس، وغير ذلك من الأحوال الَّتي تمرُّ علينا في اليوم واللَّيلة، وأن يكون بعد حجِّه أكثر ذكرًا لله ممَّا كان عليه قبله.

وفي «صحيح مسلمٍ» من حديث العلاء بن عبد الرَّحمن، عن أبيه، عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يسير في طريق مكَّةَ، فمرَّ على جبلٍ يُقال له: (جُمْدانُ)، فقال: «**سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ، سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**» أي اشتدُّوا في السَّير في سفركم، ثم أراد أن ينبِّههم إلى السَّير الأعظم فقال: «**سَبَقَ المُفَرِّدُونَ**»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**»[1].

فيسبق الإنسان في سيره إلى الله بكثرة ذكره، فينبغي أن يكثر العبد من ذكر الله، وأن يحرص على أن تكون حاله بعد الحجِّ غير حاله قبل الحجِّ.

۞ **والأمر السَّادس**: الثَّبات على الإسلام، وعدم اتِّباع الدعوات المضلِّلة.

فإنَّ الله أنعم علينا بالإسلام، وقال لنا نبيُّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الَّذي رواه التِّرمذيُّ من حديث عبد الرَّزَّاق، عن مَعمر بن راشدٍ، عن بَهز بن حكيم بن معاويةَ بن حَيدةَ، عن أبيه، عن جدِّه معاويةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنْتُمْ تُتِمُّونَ**

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٦٧٦)، من حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ» [١].

لم يجعلك الله يهوديًّا، ولم يجعلك الله نصرانيًّا، ولم يجعلك مشركًا وثنيًّا، ولكن جعلك حنيفًا مسلمًا، جعلك من خير أمَّةٍ وأكرم أمَّةٍ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه الكرامة تستدعي منَّا الثَّبات.

وفي «صحيح مسلمٍ» لمَّا ذكر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنة المسيح الدَّجَّال قال: «**يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**» [٢].

وكما أُمِرنا بالثَّبات في الفتنة الكبرى من المسيح الدَّجَّال، فإنَّنا نُؤمَر بالثَّبات على دين الإسلام أمام كلِّ الدَّجاجلة الصِّغار.

فإنَّ دين الحقِّ يقمع كلَّ زائغٍ، والحقُّ يعلو ولا يُعلَى عليه، وللباطل جولةٌ، ولكنَّ الحقَّ لا يزول من الأرض.

فالله عَزَّوَجَلَّ قال لمَّا ذكر أبانا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرف]، وتلك الكلمة هي (لا إله إلا الله)، فهي باقيةٌ في الأرض في عَقِب إبراهيمَ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**» [٣].

وهذا يستدعي منَّا أن نحرص على الثَّبات على دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وألَّا ينجرف

---

(١) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٠٠١).

(٢) أخرجه مسلمٌ (٢٩٣٧)، من حديث النَّوَّاس بن سمعانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٦٤١) ومسلمٌ (١٠٣٧)، من حديث معاويةَ بن أبي سفيانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المرء وراء الدَّعوات المضلِّلة؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لمَّا ذكر الشَّيطان قال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النِّساء]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النِّساء].

فهي معركةٌ باقيةٌ بين الحقِّ والباطل، والهدى والضَّلالة، والنُّور والظُّلمة، ما بقيت هذه الدُّنيا.

وقد أكرمنا الله بدين الإسلام، فينبغي أن نُرِي الله منَّا صدقًا بالثَّبات عليه، وهو سُبْحَانَهُ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم:٢٧]؛ فالَّذي يثبِّت هو الله، والَّذي يُثبَّت هم الَّذين آمنوا من العبيد، فعلى قَدر الإيمان يكون الثَّبات.

فإنَّ الشَّيطان قد جعل له نوَّابًا؛ فمن النُّوَّاب من يدعو إلى الشِّرك ويزهِّد في التَّوحيد، ومن النُّوَّاب من يدعو إلى البدعة ويزهِّد في السُّنَّة، ومن النُّوَّاب من يدعو إلى الضَّلالة ويزهِّد في الهدى، ومن النُّوَّاب من يزيِّن عبادة غير الله بنصب المشاهد والقبور، ومن النُّوَّاب من يزيِّن للنَّاس أكل الرِّبا، ومن النُّوَّاب من يُزيِّن للنِّساء التَّبرُّج والسُّفور وخلع الحجاب = كلُّ هؤلاء نوَّاب إبليسَ، ولكنَّ ﴿كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النِّساء]، فالله معنا ولا أحد معهم، والإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه.

فينبغي أن يَعمُر العبد قلبَه بعد فراغه من الحجِّ بالثَّبات على دين الإسلام، وأن يقيم نفسَه في ثغوره، وأن يجتهد في حفظه في نفسه، وفي زوجته، وفي أهله وذرِّيَّته، وفي جيرانه، وفي قرابته، وفي أهل بلده، وأن يعلم أن هذا المقام - وهو مقام الثَّبات في أزمنة الفتنة - ممَّا يَعظُم به الأجر.

وفي «سنن أبي داودَ» من حديث أبي ثعلبةَ الخُشنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا ذكر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيَّام الصَّبر والقبض على الجمر قال: «**لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ**»، قالوا: يا رسول الله؛ أجر خمسين منهم؟ قال: «**أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»[(١)].

فيكون له من الأجر على العمل أجر خمسين صحابيٍّ يعملون هذا العمل، وذلك لقلَّة العامل به، وإعراض أكثر النَّاس عنه، وغلبة الجهل والهوى على نفوس الخلق.

فممَّا يسلِّي قلوب الثَّابتين على دين الله: ما وعدهم الله من الأجر العظيم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّهم يريدون أن يجعلوا أنفسهم عبيدًا لله لا عبيدًا لمن سواه.

فلا عبوديَّة في قلوبهم لمنصبٍ، ولا رئاسةٍ، ولا درهمٍ، ولا دينارٍ، ولا جمعٍ، ولا دمعٍ، ولا غير ذلك؛ بل قلوبهم معلَّقةٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهم يعلمون أنَّ الحياة وإن طالت فهي قصيرةٌ؛ ففي «الصَّحيح» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقَلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ**»[(٢)].

ولو عاش الإنسان مائة سنةٍ أو مائتين فإنَّها تنتهي بالموت، ووراءه آخرةٌ يُنادَى فيها: «**يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؛ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ؛ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**»[(٣)].

فالثَّابتون وإن عانوا في الحياة الفانية، فسينعمون في الحياة الباقية، وسيجدون من نَعماء الله ما ينسون به كلَّ بؤسٍ ذاقوه في الدُّنيا.

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٤٣٤١).

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٣٥٥٠) وابن ماجه (٤٢٣٦)، من حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٧٣٠) ومسلمٌ (٢٨٤٩)، من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي «صحيح مسلمٍ» أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ؛ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ - يَا رَبِّ -، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ؛ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا - وَاللهِ - يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»[(١)].

۞ **والأمر السَّابع**: أنَّ من الأمور الَّتي ينبغي أن يورثها الحجُّ فينا بعد فراغنا منه: لزوم الجماعة والطَّاعة، والحذر من مفارقة جماعة المسلمين ومنازعة من ولَّاه الله أمرهم.

فالله جمعنا جميعًا من جماعة المسلمين في أيَّام الحجِّ؛ لتتجلَّى رابطة الجماعة، ولنذكرَ قول الله تَعَالَى: ﴿**وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا**﴾ [آل عمران:١٠٣].

ولا تنتظم هذه الجماعة إلَّا بالطَّاعة، ولذلك كان من السُّنن: إمارة الحجِّ؛ فكان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميرًا للحجِّ، ثمَّ كان أبو بكرٍ، ثمَّ كان عمرُ، ثمَّ كان عثمانُ، ثمَّ كان عليٌّ، ثم هكذا في طبقات الإسلام إلى يومنا هذا، فيُوجَد أمير الحجِّ؛ لتحقيق هذا المعنى في نفوس النَّاس، بأن يكون الحجُّ مظهرًا نتذكَّر فيه لزومَ الجماعة، وعدم منازعة الطَّاعة؛ فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ**»[(٢)]، وفي «الصَّحيحين» من حديث ابن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ: السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيمَا**

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٨٠٧)، من حديث أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٦٥)، من حديث عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَحَبَّ وكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ؛ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا طَاعَةَ» [(١)].

فينبغي أن يكون من الأمور الَّتي نَعمُر بها قلوبنا بعد انفصالنا من الحجِّ: حرصنا على لزوم جماعة المسلمين، والتَّأليف بين قلوبهم، وتقريب نفوسهم بعضهم بعضًا؛ بين الرَّاعي والرَّعيَّة، والصَّغير والكبير، والغنيِّ والفقير، والأمير والمأمور.

وأن يُذكَّر النَّاس بما يجب عليهم من طاعة من ولَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرهم، طاعةً يتقرَّبون بها إلى الله ويبتغون بها صلاح الدِّين والدُّنيا، وما يكون لهم من الأجر في الآخرة، وأنَّهم مهما فاتهم من شيءٍ من الدُّنيا فقد قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ**» [(٢)]، فيسأل العبد ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما له من حقٍّ، ويدعه لله، وكفى بالله وكيلًا، وكفى بالله حفيظًا.

فهذه الأمور السَّبعة من الأمور العظيمة الَّتي ينبغي أن نستحضرها في قلوبنا بعد انفصالنا من الحجِّ، وهي مع ما سبق ذكره من المنافع العظيمة - وهنَّ أربعٌ فيما ذكرنا ممَّا يناسب المقام - ممَّا ينبغي علينا جميعًا - ابتداءً من المتكلِّم إليكم - أن ننظر فيها، وأن نُجيل الفكرة بعد الفكرة، والبصيرة بعد البصيرة، في تحقيق معانيها وفهمها كما أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منَّا؛ لنرجع من هذا الحجِّ بمنفعةٍ عظيمةٍ، ترجع علينا بالخير الوافر في الدُّنيا والآخرة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا جميعًا من عباده المتقبَّلين.

اللَّهم اجعلنا ممَّن قبلتَ حجَّه، وغفرتَ ذنبه، وتقبَّلتَ طاعاته، وكفَّرتَ سيِّئاته،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٧١٤٤) ومسلمٌ (١٨٣٩) - واللَّفظ له -، من حديث عبد الله بن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه التِّرمذيُّ (٢١٩٠)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكثَّرتَ حسناته.

اللَّهم آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومولاها.

اللَّهمَّ إنَّا نسألك الهدى، والتُّقى، والعفاف، والغنى.

اللَّهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدُّنيا.

اللَّهمَّ متِّعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوَّتنا أبدًا ما أحييتنا، واجعله الوارث منَّا.

اللَّهم إنَّا نسألك البركة في أعمالنا، ونسألك البركة في أعمارنا، ونسألك البركة في قوَّاتنا، ونسألك البركة في أقواتنا، ونسألك البركة في نيَّاتنا، ونسألك البركة في ذرِّيَّاتنا.

اللَّهم ألِّف بين قلوب عبادك المسلمين، اللَّهم ألِّف بين قلوب عبادك المسلمين.

اللَّهمَّ ارحم أمَّة محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّهم ارحمهم برحمتك، واكلأهم بعنايتك.

اللَّهمَّ ولِّ عليهم خيارهم، وقهم شرَّ شرارهم.

اللَّهم إنَّا نعوذ بك من كيد الكفَّار، وغدر الفجَّار، اللَّهمَّ إنَّا نعوذ بك من شرورهم، وندرأ بك في نحورهم.

اللَّهم احفظ على الحجَّاج حجَّهم، اللَّهم احفظ على الحجَّاج حجَّهم، اللَّهمَّ أتمَّ عليهم حجَّهم وهم في عافيةٍ وعفوٍ، وسلامةٍ ومغفرةٍ، اللَّهمَّ أمِّنهم في أنفسهم، وأمِّنهم على أموالهم، وأمِّنهم على أهليهم، وأمِّنهم على ذراريهم، وأمِّنهم على بلدانهم.

اللَّهمَّ وفِّق خادم الحرمين الشَّريفين ووليَّ عهده لما تحبُّ وترضى، وخذ بنواصيهما إلى البرِّ والتَّقوى، اللَّهمَّ أعنهما على القيام بحقِّ المسلمين عامَّةً، وحقِّ الحجَّاج خاصَّةً، اللَّهمَّ وفِّقهما في ذلك إلى كلِّ خيرٍ، وقهم كلَّ نقصٍ وضيرٍ، اللَّهمَّ

ارزقهما البطانة الصَّالحة النَّاصحة، وجنِّبهم بطانة السُّوء.

اللَّهمَّ احفظ بلاد المسلمين عامَّةً من كلِّ سوءٍ، اللَّهمَّ احفظ بلاد المسلمين عامَّةً من كلِّ سوءٍ، اللَّهمَّ احفظ بلاد المسلمين عامَّةً من كلِّ سوءٍ.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين [١].

(١) أُلقِيت المحاضرة بعد العشاء ليلة الأربعاء الثَّالث عشر من ذي الحجة سنة تسعٍ وثلاثين بعد الأربعمائة والألف، بمسجد الخِيف بمشعر منًى، ومدَّتها: ساعةٌ وثلاث دقائقَ.

الإِجَابَةُ عَنِ الأَسْئِلَةِ

السُّؤال (١): نرجو أن توصونا وصيَّةً نستمسك بها في هذا الزَّمان وننجو؟

الجواب: أوصيك بما سبق ذكره في هذه الكلمات الَّتي تقدَّمت.

السُّؤال (٢): ما أحسن كتابٍ في أمراض القلوب ودوائها؟

الجواب: أحسن كتابٍ هو القرآن الكريم، فينبغي للإنسان أن يكثر من قراءة القرآن وأن يعتني بفهمه؛ كي ينتفع به انتفاعًا عظيمًا.

السُّؤال (٣): هل قول (يا حاجُّ) لمن حجَّ أو لكبير السِّن عند النِّداء هل لها أصلٌ شرعيٌّ؟

الجواب: ليس لها أصلٌ شرعيٌّ، وإذا قيلت على إرادة أنَّه ممَّن حجَّ؛ فلا بأس.

أمَّا إذا قيلت لأجل الافتخار بها وجعلها لقبًا يفخر به الإنسان على غيره؛ فإنَّه لا يُقبَل، ولا يُقال له: يا حاجُّ.

السُّؤال (٤): يرجع الحاجُّ بعد حجِّه غليظ الطَّبع والمعاملة قاسيًا مع من حوله، فما نصيحتكم؟

الجواب: مثل هذه الأحوال الَّتي تَعرِض لبعض النَّاس هي في حقِّ بعض الحجَّاج، وأمَّا جمهور الحجَّاج من المسلمين فالمظنون بهم أنَّهم يرجعون إلى بلدانهم وقد أخبتت قلوبهم، وانكسرت نفوسهم، وحرصوا على الإحسان مع الله ومع خلقه، فهذا حال جمهور المسلمين إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ.

وإن وُجِد من أحدٍ غلظةٌ في طبعه بعد حجِّه، فهذا قد يكون لأجل الاغترار بالعمل، أو الفخر بلقب (الحاجِّ) على غيره، وهو الأمر الَّذي حذَّرنا منه - فيما تقدَّم -، فإنَّ من آثار استرسال النَّفس بمثل تلك الأمور: أن يغلظ القلب ويقسو، ثمَّ يسيء المرء معاملة النَّاس ويستعلي عليهم.

فينبغي للحاجِّ أن يحذر من الاغترار بعمله والاستعلاء على خلق الله؛ لئلَّا يرجع عليه ذلك بفساد دينه وطبعه.

السُّؤال (٥): رجلٌ حجَّ وعنده مظالمُ لا يستطيع التَّحلُّل منها، فما السَّبيل لتكفيرها؟

الجواب: المظالم الَّتي تكون عند الإنسان ممَّا يتعلَّق بالنَّاس نوعان:

أحدهما: أقوالٌ.

والآخر: أعيانٌ.

فالأمر الأوَّل - وهو الأقوال -: كأن يكون اغتاب أحدًا، أو نَمَّ عليه، أو استهزأ به، أو غير ذلك، فهذا يكفيه - في أصحِّ القولين - أن يتوب إلى الله ويستغفر، وأن يدعو لمن أساء إليه، هذا قول الشَّافعيِّ، واختيار ابن تيميَّةَ الحفيد وصاحبه ابن القيِّم في «الوابل الصَّيِّب».

وإن أمكنه أن يتحلَّل منه من دون حصول مفسدةٍ أخرى فليتحلَّل، وإن شقَّ ذلك عليه أو خاف حدوث مفسدةٍ فإنَّه يكفيه أن يدعو له وأن يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ ويتوب إليه.

وأمَّا إن كانت المظلمة عينًا؛ كمالٍ، أو أثاثٍ، أو غير ذلك، فإنَّه يجب أن يردَّه إليه؛ إمَّا أن يردَّ قيمتَه، أو يردَّه إذا كان له مِثْلٌ.

فإن جهله ولم يعلم أين هو، فإنَّه يتصدَّق عنه؛ كمن سرق مائة ريالٍ من أحدٍ، فهذه

مظلمةٌ ماليَّةٌ؛ فينبغي له إذا لم يمكن معرفة صاحبها أن يتصدَّق بها ناويًا له عنه.

فبهذا يحصل له التَّحلُّل، مع الاجتهاد في التَّوبة والاستغفار ودعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتوب عليه.

والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ؛ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»[(١)].

السُّؤال (٦): كيف الجمع بين حديث: «**لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ**»[(٢)]، وحديث «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[(٣)]؟

الجواب: يُقال: إنَّ الفضل المذكور هو في العمل، وأمَّا باعتبار مجموع الفضائل والشَّمائل فالواحد من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بمجموع شمائله وما له دون غيره هو أفضل من كلِّ أحدٍ بعده، ومن أعظم شمائلهم: مبادرتهم إلى تصديق النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإيمان به واتِّباعه، ورؤيتهم له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه الرُّؤية لا يشاركهم أحدٌ فيها ممَّا جاء بعدهم.

فباعتبار مجموع الشَّمائل والفضائل فالواحد من الصَّحابة أفضل، لكن باعتبار أفراد العمل فإنَّه يكون للعامل في أيَّام الصَّبر والقبض على الجمر أجر خمسين من الصَّحابة على ذلك العمل.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٥.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣٦٧٣) ومسلمٌ (٢٥٤١)، من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

السُّؤال (٧): هل يبطل حجُّ من ارتكب معصيةً في أيَّام التَّشريق؟

الجواب: لا يبطل حجُّه إذا ارتكب معصيةً من المعاصي دون أن يأتي فرجًا حرامًا، والفرج الحرام - وهو الجماع - فيه التَّفريق بين كونه قبل التَّحلُّل الأوَّل أو بعد التَّحلُّل الأوَّل، وله موضعه الَّذي يُفتَى فيه، لكن إن أصاب ذنبًا - ولو كبيرةً - سوى المحظورات في الحجِّ ممَّا يندرج في اسم (الجماع) المتعلِّق بالكفَّارة المعروفة؛ فلا يَبطُل به حجُّه، كما لو اغتاب، أو كذب، أو نظر نظرة حرامًا، أو غير ذلك، لكن ينقص من أجره بقدر ما وقع من ذنبه.

وينبغي أن يكثر من دعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتَّوبة، وأن يستغفر ما بقي في هذه الأماكن الشَّريفة.

السُّؤال (٨): أحبُّ أن أكون عالمًا نافعًا للأمَّة، ولكنَّها أمانيٌّ لم تتحقَّق على الواقع، فما السَّبيل إلى تحقُّقها؟

الجواب: محبَّة العلم من الأعمال الصَّالحة، فيُؤجَر على هذه المحبَّة ولو لم يبلغها أمله، فمن أحبَّ أن يكون عالمًا يتعلَّم دين الله ويعلِّمه ويرشد النَّاس، فهذا يُؤجَر على هذه النِّيَّة الحسنة، ويُرجى له بها خيرٌ عظيمٌ.

وأمَّا الأماني الَّتي تجول في نفسه فينبغي له أن يَحطِمها بالعمل، فإنَّ الأمانيَّ رؤوس أموال المَفاليس، لكنَّ العمل الجادَّ الصَّادق هو الَّذي يبلِّغ الإنسان أملَه.

فعليه أن يجتهد في ملازمة أهل العلم، والأخذ عنهم، وتلقِّي العلوم بالحفظ والفهم، ويدعو الله بالتَّوفيق والفتح والإعانة، وييسِّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، فمن جدَّ واجتهد ورغب فيما عند الله ودعاه وسأله وكان صادقًا؛ فسيعينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مهما كانت

الصِّعاب الَّتي تحيط به في نفسه أو في بلده.

وفي أخبار بعض من سبق: أنَّ رجلًا أراد العلم، فشقَّ عليه حفظه والجلوس إلى أهله، فخرج في ظاهر البلد فجلس إزاء نبع ماءٍ، فرأى صخرةً تنزل عليها قطرةٌ من النَّبع مرَّةً بعد مرَّةٍ، وقد أثَّرت هذه القطرة حتَّى حفرت تلك الصَّخرة، فقال: الماء مع لطافته، أثَّر في الصَّخر مع كثافته، فالعلم أولى أن يؤثِّر في قلبي، فحمله ذلك على العودة إلى طلب العلم والاستزادة منه.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتقبَّل منَّا أجمعين، وأن يوفِّقنا إلى العلم واليقين، والحمد لله ربِّ العالمين.

تمَّ بحمد الله

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد